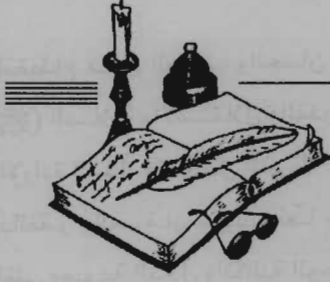


الإسلام فكر وحركة



سنن التغيير في السيرة النبوية وتطبيق على الحركات الإسلامية المعاصرة

من البديهي أن وحي السماء كان يوجه حركة الدعوة الإسلامية ويضبطها، وأن دعوة محمد (ﷺ) كان لابد أن تنتصر، ولكن الله (ﷻ) أراد أن يكون الانتصار باتباع السنن الاجتماعية التي وضعها جل شأنه، لتكون نموذجاً قابلاً للاقتداء به بعد انقطاع النبوة، وهي السنن التي حكمت حياة البشرية منذ الخليقة، وستظل إلى يوم القيامة. والاقتداء برسول الله (ﷺ) يتضمن فهم طرائقه وأساليبه في العمل السياسي واستيعابها، سواء كان في موقع المعارضة أو الحكم.

والكتاب الذي بين أيدينا يتضمن بالأساس أهم القوانين الأساسية للصراع السياسي من سيرة رسولنا الكريم محمد (ﷺ)، وذلك على التفصيل الآتي:

القانون الأول: تشكيل النواة العقائدية القيادية الصلبة..
من أجل التغيير

الدرس الأول لنجاح عملية التغيير بهدف إقامة الدولة الإسلامية، دولة العدل والمساواة والتكافل، كان تأسيس النواة العقائدية القيادية الصلبة، وهذه النواة لابد أن تبدأ بالقائد نفسه؛ فمن أبيه وأمه أخذ الرسول (ﷺ) في دمه وأعصابه أصالة الشخصية ووضوحها ونقاءها، وكسب على المستوى الاجتماعي احتراماً وتقديراً في بيئة كانت تستهجن مجهولي الأنساب وتحترق الخلفاء، ومن مرارة اليتيم ووحشة العزلة

سنن التغيير في السيرة النبوية وتطبيق على الحركات الإسلامية المعاصرة



• تأليف: مجدي أحمد حسين

• الناشر: المركز العربي للدراسات، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م

• عدد الصفحات: ٥٥٠ صفحة

• عرض: مصطفى فؤاد

وانقطاع معين العطف والحنان قبس الرسول (ﷺ) الصلابة والاستقلال والقدرة على التحمل، والإرادة الفذة، والتحمل الذي لا ينكسر له قناة، وبالفقر والحرمان تربى ونما بعيداً عن ترف الغنى وميوعة الدلال واتكالية الوجدان.

وإذا عزلنا مسألة النبوة والوحي، وهي أمور غير قابلة للتكرار، فإن الدرس الأول المستفاد هو أن الحركات الكبرى التي غيرت مجرى التاريخ في مجتمعاتها أو في العالم بأسره بدأت بشخص واحد يتمتع بخصائص خاصة، حيث تكون القضية العامة هي الغالبة على كيانه وفكره، وليس همومه الشخصية. وقادة الحركات الكبرى التي غيرت مجرى التاريخ مروا بمرحلة إعداد نفسي فردي، ساعدتهم عليه الظروف المحيطة بالنشأة، والاحتياج الملح للإصلاح في مجتمعاتهم، وإدراكهم لضرورة الإصلاح، وأن لهم دوراً أساسياً فيه، وحباهم الله من المواهب والخصائص التي تساعدهم على أداء هذا الدور. وصبروا على أنفسهم، ونموا هذه المواهب وحرصوا على هذه النعمة، وكرسوها في سبيل خير مجتمعاتهم.

وعندما يعد القائد نفسه بالثقافة والتأمل والبحث، وتصفقه الظروف، وتتضح له معالم رسالته، فإن مهمته الأولى تكون تكوين النواة الأولى المؤمنة بنفس الرسالة، والتي يكون معظمها من الشباب ومتوسطي الحال من الناحية الاجتماعية، وهي بالضرورة لابد أن تكون ضيقة، وهي أشبه بعملية تكوين الجنين داخل الرحم، وتكون بطيئة جداً في المرحلة الأولى.

القانون الثاني، الجهر بالدعوة إعلان حرب على النظام الطاغوتي وصراع حول التشريعية

الجهر بالدعوة ليس مجرد الجهر بالمعارضة؛

ففي كل المجتمعات توجد فرق معارضة للحكم، ولكن أصحاب الرسالات ليسوا مجرد معارضين للحكم، إنهم يدخلون في اشتباك سافر مع الحكم الطاغوتي، ويعلنون عدم مشروعيتها، وضرورة الإطاحة به، ولا بد أن يعلنوا أولاً الكفر بالطاغوت (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) (البقرة: ٢٥٦).

أي أن إعلان الكفر بالطاغوت هو علامة البدء في الجهر بالدعوة وليس أقل من ذلك، فكل فرق المعارضة التي تدور في فلك النظام الفاسد تعارضه، ولكن الإسلاميين لا يكتفون بالمعارضة ولكنهم يطرحون الإطاحة به ويطرحون مشروعهم الحضاري الشامل، ويدخلون في مواجهة شاملة بكل أساليب المقاومة السليمة ضد هذا النظام منذ اللحظة الأولى للجهر بالدعوة، أي منذ اللحظة الأولى من الفراغ من بناء النواة القيادية الصلبة.

والاقتداء بالرسول (ﷺ) في هذا الموطن يعني الإعلان عن عدم مشروعية النظام القائم والسعي للإطاحة به، وأن يكون ذلك الهدف معلناً للكافة، وليس لأعضاء التنظيم فحسب؛ لأن التغيير يتم بالشعب، والتنظيمات هي التي تقود الشعب سياسياً وفكرياً، وأيضاً من خلال تنظيم حركة عصيانه ضد النظام الجائر، خاصة ونحن أمام أنظمة ترفض صراحة المرجعية الإسلامية، وتعلن الولاء لمرجعية الولايات المتحدة وتوالي الصهيونية والغرب عموماً.

والسبب الرئيسي لتعطيل التغيير - من وجهة نظر الكاتب - هو أن الحركات الإسلامية لا

الحركات الكبرى التي غيرت مجرى التاريخ في مجتمعاتها أو في العالم بأسره بدأت بشخص واحد يتمتع بخصائص خاصة، حيث تكون القضية العامة هي الغالبة على كيانه وفكره، وليس همومه الشخصية



إلى عنصر من عناصر النصر، وليس عنصراً ميثقاً - كما يتصور البعض - خاصة أنه لا يوجد طريق آخر، بل هو طريق إجباري للإصلاح وإقامة الدين، وهو في النهاية الطريق المعبود إلى الجنة، على رغم أشواكه.

والواقع أن كل حملات التتكيل والاضطهاد لم تؤد إلى انكماش الدعوة، ولا إلى تغيير الشعارات المرفوعة لها، أو تخفيف لهجتها.

فأصحاب العقيدة يستمدون منها طاقة صمود لا يملكها غيرهم، وهذا جزء لا يتجزأ من قانون النصر؛ لأنهم يقاومون الطواغيت كعبادة وتقرب إلى الله. فما بالكم بحركات غير إسلامية استطاعت أن تتحمل مشاق الاضطهاد وتقتصر، والأمثلة بلا حصر في التاريخ القديم والمعاصر، ولكن لا شك أن المؤمنين لديهم ورقة رابحة إضافية، بل حاسمة، هي الإيمان بالله، واحتساب ما يتعرضون له من اضطهاد عند الله تعالى، ولأنهم يدركون أن هذا هو طريق الجنة.

القانون الرابع: الرد على الاضطهاد باستمرار نشر الدعوة بالوسائل السلمية

في مواجهة حملة القمع التي تعرضت لها

تخوض معركة المشروعية، وأنها تتحول إلى مجرد حزب سياسي مشغول بالتفاصيل بحجة التدرج، في حين أن أبواب التغيير الشامل لا تتفتح أبداً إلا عبر هذا الطريق، وهو نزع المشروعية عن النظام الفاسد وطرح مشروعية جديدة؛ فالنظم السياسية لا تحكم الناس أساساً بالقوى المادية (جيش - سجون - اضطهاد) ولكنها تقوم أساساً على رضا الناس بالعقد الاجتماعي القائم بين الحكام والمحكومين.

القانون الثالث: الابتلاء الاحتملي لأصحاب دعوة الإصلاح والتغيير

الابتلاء من سنن الله في خلقه عموماً، وليس في الجهاد من أجل الإصلاح والتغيير أو جهاد الأعداء بصورة مسلحة فحسب، فالحياة بطبيعتها ليست منبسطة، بل هي سلسلة من الابتلاءات والمصاعب والمشاق، تتخللها فترات راحة واسترواح ومتعة واستمتاع (لقد خلقنا الإنسان في كبد) (البعد: ٤).

يظن الطفلة أن الاضطهاد التي يشنونه ضد المؤمنين هو الأسلوب الناجع للقضاء على أي حركة معارضة إصلاحية، وفي جعبتهم الكثير: سجن - تعذيب - اضطهاد، وغيرها.

وحملة الاضطهاد لا تقتصر على العنف البدني؛ فالحملات الإعلامية الفاجرة التي تستهزئ بالمؤمنين لا تقل إيلاًماً، وربما تكون أخطر من زاوية التشويش على الدعوة التي تعتمد أساساً على إقناع الناس.

وما يلقاه المجاهدون من اضطهاد هو تمحيص واختبار من الله (تبارك وتعالى) في المقام الأول، ولكن صمودهم وصمود قادتهم يؤكد أمام الناس صدقهم وإخلاصهم للدعوة، وبهذا يتحول الابتلاء

القانون الخامس: المقاومة باليد أو الدفاع المشروع عن النفس

إن مشروعية رد الفعل باليد تعود إلى أنها رد فعل إنساني طبيعي في بعض المواقف، وأنه دفاع مشروع عن النفس، وأن طبائع البشر مختلفة، وأن بعض هذه المواجهات يردع الخصوم، ويشجع أنصار حركة الإصلاح.

وتطبيقاً لهذا القانون في عصرنا الحديث يمكن أن نفهم احتكاك بعض النشطاء بالشرطة أحياناً، واستخدام الحجارة رداً على الرصاص المطاطي أو القنابل المسيلة للدموع وغيرها، كما أن اهتمام الحركات الإسلامية بتعليم الشباب فنون الكاراتيه ليس عيباً أو خطأ، ويجب عدم الاعتذار عنه، وكان تقوية بنیان الشباب وتعليمهم فنون الدفاع عن النفس من أعمال الإرهاب، خاصة في وقت تستخدم فيه الشرطة بلطجية ومجرمين حقيقيين للاعتداء على المتظاهرين أو حتى الطلاب داخل الجامعات، وراينا الاعتداء العلني في الشوارع على أعراض فتيات ونساء من المعارضة الإسلامية وغيرها. فهناك حالات تسمى الدفاع المشروع عن النفس والتي يعترف بها القانون الوضعي ذاته، يباح فيها استخدام القوة للدفاع عن المال أو النفس أو العرض، ولكن يظل الوجه الرئيسي للحركة الإصلاحية هو استخدام كافة أشكال التجمع والمواجهة والمقاومة السلمية؛ لأن هذا هو الطريق الأساسي المفضي إلى التغيير.

القانون السادس: الهجرة إحدى وسائل حماية النواة الصلبة

الهجرة لا تعني الهروب أو السفر خارج

دعوة الإسلام في بدايتها، كان الرد بوسائل سلمية تشمل: الحملات الإعلامية المضادة، والرد على أراجيف وشتائم أئمة الكفر بقوة ومن دون ملاينة، فقد واصل الرسول (ﷺ) الصلاة في الكعبة والطواف حولها، على رغم كل مخاطر ذلك، وما تعرض له خلاله من استهزاء وغمز ولمز، ولم يكن الضرب أو الاعتداء يشيه هو وأصحابه عن مواصلة دعوتهم.

وعلى رغم حملة الاضطهاد على جماعة المسلمين الأولى التي كانت محدودة العدد آنذاك، فإن محمداً (ﷺ) وأصحابه كانوا لا يتوانون عن حل مشكلات المظلومين، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، قدر الطاقة بطبيعة الحال؛ لأن أصحاب دعوة الإصلاح والعدل لا يمكن أن يردوا مظلوماً يمكن إنصافه، فهي مسألة في صميم أخلاقيات الدين.

ومما لا شك فيه أن المقاومة السلمية هي التي تحفظ الدعوة وتشرها، وتحاول التقليل من الضربات المضادة للنظام الطاغوتي، وتحولها إلى مجرد أذى دون إجهاد الدعوة. ومما لا جدال فيه أن إبداع وسائل المقاومة السلمية مفتوح في تفصيلاته، ولا يقتصر على محاكاة ضيقة الأفق للوسائل التفصيلية التي جرت في المرحلة المكية؛ فالمهم هو استخدام كافة أشكال الاحتجاج والتجمع السلمي، فضلاً عن مواصلة الخطاب الديني الإعلامي القوي كما هو دون تأثر بهذه الحملات، وإلا لسمحنا للاستبداد أن يفرض هدفه، وأن يجعل حركة الإصلاح تعمل في حدود المسموح لها أو وفقاً للوتيرة التي تقبلها السلطة؛ فإذا فعل المصلحون ذلك يكونون قد فشلوا ومكنوا خصمهم من تحقيق نصر مبكر.

السبب الرئيسي لتعطيل التغيير هو أن الحركات الإسلامية لا تخوض معركة المشروعية، وأنها تتحول إلى مجرد حزب سياسي مشغول بالتفاصيل بحجة التدرج



ازدياد - عندما يرون كل هذه التطورات المنذرة بالخطر؛ فلا بد أن يغيروا خططهم ويصعدوا المواجهة، وهنا يصلون إلى فكرة أكثر خبثاً وخطورة على الدعوة، وهي فكرة الاستئصال التام والجماعي للحركة.

وفي عصرنا الراهن، رأينا قيام الأنظمة الاستبدادية بحملات استئصال للحركات الإسلامية، سواء أكانت مسلحة أم مدنية، واستخدمت هذه الأنظمة السجون والاعتقالات الجماعية الشاملة ليس بهدف العقاب أو التخويف أو التحجيم، بل بهدف الإبادة الجماعية للحركة عن طريق إساءة المعاملة داخل السجون ومنع العلاج الطبي، وأحياناً القتل الجماعي لإبادة الحركة جسدياً، أو إبادتها معنوياً بمعنى إعلان من تبقى حياً توبته وموالاته للنظام حتى يفرج عنه.

ومن سنن الله في خلقه، أن منطلق الاستئصال ليس محصوراً في الحرب على الإسلام، ففي النزاعات المختلفة حول السلطان والنفوذ تطرح الفئة المسيطرة خطة الاستئصال؛ ذلك لأن شهوة السلطان وما تفتحه من أبواب شهوات الدنيا كلها تجعل قوى الاستكبار والهيمنة والسلطنة تدافع عن مواقعها ومصالحها حتى الموت، ولا تستحي من ارتكاب حمامات الدم

الوطن، بل هي هجرة المال والأهل والولد والأوطان العزيزة على النفس دائماً، ولكنها هجرة إلى الله تستهدف الحفاظ على الدين واستجماع القوى لجولة جديدة في ميدان الوطن، والاستفادة بوقت الهجرة في تعميق الإيمان وتعزيز النواة الصلبة العقائدية، وأيضاً لنشر الدعوة في مكان الهجرة، وهذا ما حدث في الهجرة الأولى إلى الحبشة.

أما الهجرة للمدينة، فكانت مختلفة؛ لأنها هجرة لبناء الدولة الإسلامية، ومع ذلك كانت مماثلة للهجرة الأولى في نقاط عديدة؛ حيث إنها تتضمن هجرة المال والولد والأهل ومسقط رأس الإنسان، والذي يظل مرتبطاً به وجدانياً أيما ارتباط، وتهفو نفسه للرجوع إليه.

والهجرة - من وجهة نظر المؤلف - في ظروف مصر والبلاد العربية التي تعاني أنظمة استبدادية طاغوتية مماثلة غير مطروحة كخيار أساسي؛ لأن الظروف مهيئة للخروج على هذه الأنظمة. والحركات الإسلامية في بعض هذه البلدان قوية وقواعدها واسعة الانتشار، ولا ينقصها إلا القرار الحاسم لقيادتها بالمواجهة مع هذه الأنظمة التي فقدت مبررها التاريخي، ولكنها مستمرة؛ بسبب التهاون معها أساساً.

القانون السابع، الطغاة يسعون لاستئصال دعوة

المصلحين

عندما يرى الطغاة أن محاولات الإثاء والضغط الفردية، والعروض المغرية والرشاوى، والحلول الوسط، وعمليات التكيل والتعذيب المتناثرة هنا وهناك، وحملات الإعلام الضالة قد فشلت في التشويش على الدعوة، وأن أنصار الدعوة في

إن أمكن ذلك؛ فالأنظمة مهما بلغ سوءها فإنها لا تخلو من عناصر خيرة كمؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه.

ويظل الحصار من أسفل هو الأهم والأساس، فالمطلوب محاصرة الطاغوت بالناس، فهذا يسحب مشروعيته تدريجياً، ويعطي قوة عددية ومادية وروحية للدعوة الصاعدة.

والتحالفات لا تعني أن تأخذ هذا الشكل القائم على العصبية والعشائرية أو القبلية فحسب، فقد عقد الرسول تحالفات لا تقوم على هذه العصبية مع "النجاشي" ثم مع قبائل عربية فيما بعد، وكانت لم تدخل الإسلام.

وفي عصرنا الحديث، لا شك أنها ستأخذ أشكالاً أخرى في المجتمعات التي كادت تذوب فيها العصبية والقبائل، ولا تزال الطبيعة القبلية موجودة في أغلب البلاد العربية والأفريقية والآسيوية.

ولكن مبدأ التحالفات لا ينحصر في العائلات والقبائل والعشائر، فهو جائز وضروري لتقدم أي حركة إصلاح، وخريطة اليوم بها تيارات وقوى سياسية وطنية تجمعها أهداف مشتركة للإصلاح مع الحركة الإسلامية، وهي في الأغلب لا تعادي الدين، بل تضم عناصر متدينة في صفوفها، وترفض البطش بالحركة الإسلامية، ولكن أحياناً تتمنع بعض الحركات الإسلامية عن التحالف مع هذه القوى، بل كثيراً ما تعجز الحركات الإسلامية عن التعاون مع بعضها البعض، وهو ما تجيد الحكومات الطاغوتية الاستفادة منها.

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم شرع وأصل

لمعارضتها أو منافسيها؛ إذا شعرت أنهم يهددون سيطرتها ويزعزعون أركان سلطانها.

وعلى رغم خطورة حملة الاستئصال على الدعوة الإسلامية، وعلى أي حركة الإسلامية بعد ذلك، فإن مواجهتها وحسن إدارة الصراع معها لا بد أن يؤدي إلى كسرها وإفشالها. وهناك شرطان لإفشال الحصار والاستئصال: الأول هو سلامة مضمون الدعوة؛ فإذا كانت الدعوة تطرح مشروعاً عظيماً ومقنعاً للتغيير أرقى من النظام القائم؛ فلا بد أن تنصر.

أما الشرط الثاني لإفشال حملة الحصار والاستئصال، فهو حسن إدارة الصراع، ويكون ذلك بعدم الاستدراج للعنف مهما كان استفزاز الطاغوت، والاستعاضة عن ذلك بالصمود والصبر والمثابرة على المواقف ذاتها، وإقامة أوسع تحالف ممكن مع القوى الأخرى، واستمرار محاولة فك الحصار، سواء بخرقه في المجال الاقتصادي، أو بمتابعة الاتصالات مع القوى الأخرى.

القانون الثامن: إقامة تحالفات مع قوى صديقة وتوسيع الجبهة ضد الطاغوت

قانون التحالفات (المنعة أو المودعة أو الجوار) مشروع، بل ضروري لنجاح خطة التغيير؛ لأن النظام الطاغوتي يظل في معظم فترات الصراع هو الأقوى مادياً بما يملكه من مشروعية لا تزال قائمة، وما يتبعها من كل إمكانيات البطش، ويعمل على خنق حركة الإصلاح من أعلى، وبالتالي فإن هذه الحركة وهي الطرف الأضعف لا بد أن تسعى لمحاصرة النظام من أسفل، بالإضافة إلى بعض الاختراقات من أعلى،

ما يلقاه المجاهدون من اضطهاد هو تمحيص واختبار من الله (عز وجل) في المقام الأول، ولكن صمودهم وصمود قادتهم يؤكد أمام الناس صدقهم وإخلاصهم للدعوة، وبهذا يتحول الابتلاء إلى عنصر من عناصر النصر، وليس عنصراً مشبهاً



كذلك، فإن الجمهور المستهدف في الأماكن البعيدة نسبياً عن القلب (العاصمة) يكون أكثر شعوراً بالحرية وأقل إحساساً بالاختناق من القبضة الحديدية للسلطة، وتكون علاقاته ومصالحه أوهى وأضعف مع المركز على خلاف كبراء القوم في الأطراف (الأقاليم)، فهم يظنون ركناً من النظام، فإذا انتشرت الحركة في الأقاليم (الأطراف)، فإن هذا يساعد على سقوط العاصمة (القلب) في النهاية؛ لأنها تستمد قوتها من مشروعيتها على كامل تراب المجتمع؛ ذلك أن انتشار حركة الإصلاح في الأطراف يسحب البساط من تحت أقدام المركز، ليس بفقدان جزء كبير من مشروعيته فقط، بل أيضاً بفقدان العديد من أركان قوته المادية، فيصبح أشبه بالقلعة المحصنة، ولكنها محاصرة وساقطة عملياً.

وهذا القانون غير إجباري في كل الحالات والبلدان، ويمكن صياغة القانون صياغة أخرى ليكون عاماً وواضحاً، وهي: إذا تعذر حسم الصراع على السلطة في المركز، يجوز اللجوء إلى الأطراف لتجميع القوى الكافية للتغيير، والأطراف مطلوبة في كل الأحوال؛ لأننا إزاء

للتعامل والتعاون مع سائر خلق الله، (أفراد - قبائل - تنظيمات - أحزاب)، في مجال الخير المشترك للجميع، كحلف الفضول الذي قال عنه الرسول (ﷺ): "إنني لو دعيت له في الإسلام لأجبت".

والأساس العقائدي والنظري لذلك أن الإسلاميين يجب ألا يسعوا لفرض مرجعيتهم بالقوة، سواء مع الحكام أو المحكومين، لكنهم يقاومون ويعادون ويبغضون من يحاربهم في دينهم أو أنفسهم أو مالهم.

القانون التاسع: التوجه إلى الأطراف من أجل

الوصول إلى القلب

إن فكرة التوجه إلى الأطراف من أجل الوصول إلى القلب قانون وسنة عامة، وإنها كقانون الهجرة تعمل إذا كان الظرف السياسي والاجتماعي يدعو إلى ذلك، على خلاف قانون بناء النواة الصلبة أو قانون الجهر بالدعوة أو قانون تكتيل الطواغيت بالمصلحين؛ فهذه قوانين تعمل بصورة دائمة، ولا فكاك منها. أما قانون التوجه للأطراف، فإنه في غالبية الشروط والظروف التاريخية يكون ضرورياً وهذا طبيعي، فسلطة الطغيان تتركز أساساً في العاصمة مركز الحكم، وبالتالي تكون يد البطش الحديدية فيها أقوى وأشد، ويكون الطاغوت حساساً جداً لأي معارضة له في دائرة الحكم وكل عصر كان له جيوشه وأمنه المركزي وسجونه المركزية وجموع البصاصين "المخبرين" الذين لابد أن يتركوا في مكان مركز الحكم (العاصمة). لذا؛ فإن حركات الإصلاح تبحث عن المناطق الرخوة في أطراف المجتمع لتلوذ بها وتتحصن حتى تقوى.

حركة تغيير في المجتمع.

القانون العاشر: إصلاح الأمة يبدأ بإصلاح

الوطن

إن الرسل والأنبياء الذين توجهوا لأقوامهم فحسب، والمصلحين والمفكرين والفلاسفة الذين انشغلوا دائماً بهموم البشرية، وقدموا حلولاً وإجابات عن هذه الهموم، لعامة البشر في أقاصي الجبال أو في أعماق الوديان، على سواحل البحر أو في جوف الصحراء، في أعماق الغابات أو في القطب الشمالي المتجمد - بدؤوا دائماً باوطانهم لاختبار صحة ما يقولون وما يعتقدون على أرض واقعهم الخاص الذي هو في متناول أيديهم أولاً، وليبرهنوا لأنفسهم وللناس على صحة ما يقولون.

ومع أن رسالة الإسلام رسالة للعالمين ولا تخص وطناً بعينه، ولا أمة بعينها، ولا زماناً بعينه، فقد اتبعت سنة الله في خلقه، ومن بينها سنن التاريخ وسنن التغيير، وقامت أول دولة إسلامية في محيط قطر واحد، هو جزيرة العرب، وتكشف السنة النبوية الشريفة إصرار رسول الله (ﷺ) على توحيد الجزيرة العربية قبل التوسع خارجها.

والتغيير رغم أنه يستهدف البشرية جمعاء، فإنه لابد أن يبدأ في المحيط الوطني، ثم ينتشر بعد ذلك بقوة الفكر والنموذج، قبل الفتوحات العسكرية.

القانون الحادي عشر: إقامة الدولة الإسلامية

فريضة

بالهجرة إلى المدينة، لم يواصل الرسول (ﷺ) دور الداعية المبشر والنذير فحسب، بل رأس

الدولة بكل ما تعنيه الرئاسة من معنى، وبعد فتح مكة أصبح رئيس دولة العرب حتى وفاته.

وفي هذا تأكيد واضح وصريح على أن هذا الدين لن يعيش ولن يقوى إلا في إطار دولة، بل إن الدولة ضرورية لعبادة الله بصورة صحيحة، بالإضافة إلى العبادة بمعناها الشامل، أي الاتباع والخضوع لكل أوامره والانتهاز عن نواهيه.

ومن الأمور الملفتة في خطاب القرآن الكريم أنه يخاطب المسلمين كجماعة أساساً، والجماعة لا تستقر من دون دولة ترعاها، فالإسلام والجماعة لا ينفصلان، والجماعة والدولة متلازمان بالضرورة؛ لأن أية جماعة في المعارضة ستظل تتعرض للتفكك، ولن تقيم صحيح الدين بصورة كاملة دون تنظيم شامل للمجتمع، ومعنى ذلك أن وجود المسلمين من دون دولة هو وضع استثنائي مؤقت ينبغي العمل على إنهائه في أقرب وقت ممكن، وأن يظل السعي إليه دائماً في كل جيل، وإن ما تعرض له المؤمنون قبل ذلك في أعماق التاريخ من أن يكونوا مجرد جماعات مضطهدة لم يعد مقبولاً بعد ذلك، بعد أن اكتمل الدين واكتملت الشريعة.

إن عدم إقامة دولة إسلامية معناه تجميد أحكام الإسلام، وهي تشمل قرابة نصف القرآن الكريم، أي مختلف الشؤون العامة وليس مجرد الشرائع، وإن عدم إدراكنا لذلك يجعل الآية الكريمة تنطبق علينا (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (البقرة: ٨٥). فإذا كان إنكار ركن واحد من أركان الدين كافياً لإخراج المرء من الملة، فكيف بإنكار معظم

الهجرة لا تعني الهروب أو السفر خارج الوطن، بل هي هجرة المال والأهل والولد والأوطان العزيزة على النفس دائماً، ولكنها هجرة إلى الله تستهدف الحفاظ على الدين واستجماع القوى لجولة جديدة في ميدان الوطن



الإسلام، وضحت بالمال والأسرة والاستقرار، ورغد العيش، وفيما بعد قدمت الشهداء من أزواجها وأبنائها وإخوتها، وشاركت في الغزوات في الأعمال اللوجستية - كما نقول الآن - في السقاية وعلاج الجرحى، وقاتلت بالسيف عند الضرورة.

والدعوة الإسلامية ما كانت لتتصر دون دور حاسم للمرأة، بل ومن دون مشاركتها على أوسع نطاق؛ فالوحدة الأولى في المجتمع هي الأسرة النووية (الأب - الأم - الأولاد)، فإذا لم تكن هذه الوحدة (الخلية) الأولى متعاونة مع الرجل فلن يتمكن من تحقيق أي شيء في حياته الشخصية أو العامة.

ولا يمكن لحركة أن تتصر دون مساهمة واسعة من جماهير الأمة، ولا يمكن لجماهير الأمة أن تشارك بشكل واسع دون مشاركة أو موافقة الزوجة والأخت والأم والابنة؛ لأن كل رجل منزرع في ذرة واحدة معهن، خاصة الزوجة، والمرأة إذاً يمكن أن تكون عنصراً أساسياً للتثييط والإحجام والنكوص أو عنصراً أساسياً في التشجيع والدفع للأمام والمساندة والمشاركة؛

أحكام الدين، والإنكار هنا من جانب المعارضة الإسلامية يعني عدم الإصرار على تغيير النظام الذي لا يحكم بما أنزل الله.

وإقامة الدولة الإسلامية توجيه قرآني سماه الله (يُؤَسِّفُ) التمكن في الأرض: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) (يوسف: ٢١)، (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) (يوسف: ٥٦)، (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) (الكهف: ٨٤)، وبعيداً عن لفظ التمكن، فالمضمون والمعنى متواتر في نسيج القرآن الكريم: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الأنبياء: ١٠٥).

لذا: فالهدف النهائي في الدنيا هو إقامة دولة العدل الإسلامية، أما بقاء الحركة الإسلامية في المعارضة إلى أجل غير مسمى، فهو أمر لا يستقيم مع الفهم الصحيح لهذه السيرة، فلا بد للحركة الإسلامية أن تجتهد وتحاول، ولا يحجمها الخوف من الفشل؛ فالفشل وارد، ولكنه يكون عادة خطأ في الخطة أو نقص في التقوى والتجرد؛ لأن النصر واجب وممكن: (إِنْ تَتُصَرُّوا اللَّهُ يَبْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد: ٧).

القانون الثاني عشر: لا ينجح التغيير بدون دور فاعل وأساسي للمرأة

كانت المرأة شريكاً أساسياً في كل مراحل الدعوة منذ اللحظة الأولى، خلال سرية الدعوة، وحتى مرحلة الجهر بها، حيث رأينا أن المعذبين من العبيد كان نصفهم من النساء، وفي الهجرتين للحيشة، وفي حصار شعب أبي طالب، وفي الهجرة للمدينة ضححت بزوجها الذي رفض

فإذا اجتمعت لدى المرأة فضيلة التضحية الفريزية مع فضيلة التضحية من وحي الوعي والضمير؛ فإنها في هذه اللحظة تفضل الرجل وتصل إلى قمة سامقة.

القانون الثالث عشر: تمكين المستضعفين

إن التغيير يعتمد أساساً على انخراط واسع للمستضعفين، وهو المصطلح القرآني للجماهير الشعبية، وإن التغيير يستهدف نصره هؤلاء المستضعفين وإنصافهم؛ فهم بذلك وسيلة التغيير والهدف في آن معاً.

والمستضعفون لا يقتصرون على الفقراء والمساكين فحسب، وفقاً للرؤية القرآنية، بل أيضاً كل أنصار حركات التغيير وقادتها، الذين يسعون لإحقاق الحق وإعلاء كلمة الله، وهؤلاء يكونون من مختلف المستويات الاجتماعية.

والمستضعفون هم أكثر استعداداً لقبول دعوة الإصلاح والتغيير؛ لأنهم أكثر المضارين من الفساد والظلم وليس لديهم ما يخسرونه، ودعوة الإصلاح التي تتضمن العدل والمساواة ستكون لصالحهم أساساً، بينما هم أبعد ما يكونون عن مغريات الحياة الدنيا.

ومما يجعل المستضعفين عنصراً جوهرياً في أي تغيير جذري أنهم يمثلون أغلبية أعضاء المجتمع، ولا يمكن عملياً إحداث تغيير كبير من دون مشاركتهم وتعاطفهم معه، وهم ما نطلق عليهم الآن "المواطن العادي"، وكل الحركات السياسية تسعى عموماً لكسب هذا الجمهور الواسع الذي نسميه أيضاً "الشعب" إلى صفوفها بالحق أو بالباطل، بالصدق أو بالنفاق. ■

فالمرأة هي العمق الاستراتيجي للرجل بارتباط عضوي، فإما أن يكون العمق الاستراتيجي مسانداً وإيجابياً أو معارضاً وسلبياً، ويمكن للرجل الفرد أن يتحمل نفور أسرته من مشاركته في الجهاد، ولكن جموع الرجال لا يستطيعون ذلك؛ ومن ثم فإن حركة التغيير التي تهتم بالتوسع في صفوف المرأة وإيلاء هذا الأمر أهمية قصوى في استراتيجيتها هي الحركة التي يمكن أن تنتصر.

إن المشاركة الإيجابية للمرأة في الجهاد المدني والحربي تؤدي إلى حالة من التعبئة العامة للمجتمع؛ مما يوفر أهم شروط النصر.

وللمرأة خصائص نوعية تتجلى أهميتها عندما تشارك بقوة في النضال من أجل التغيير، ومن هذه الخصائص الميل الفريزي للتضحية؛ فالتضحية هي أسمى فضائل الإنسان، وهي فضيلة لا يقدم عليها المرء كل يوم، ولا يقدم عليها بغير دافع شديد من وحي الفطرة أو من وحي الضمير.

ولكنها من وحي الفطرة أعم وأنفذ من وحي الضمير؛ لأن سلطان اللحم والدم عميق القرار في بواعث النفوس، ومن ثم كانت المرأة أقرب من الرجل إلى التضحية في وظائفها النوعية؛ لأنها تستمد تضحياتها من غرائز الأمومة، وتموت في سبيل الذرية، ولا تسهل التضحية على الرجل هذه السهولة إلا إذا ارتقى فيه وحي الضمير إلى مرتبة الدوافع الفطرية المودعة منذ الأزل في غرائز الأحياء، وتلك مرتبة يعز بلوغها على أبناء آدم.